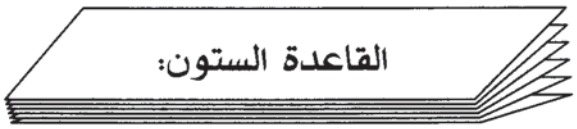

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأُمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أنه إذا أُجملت القصة بكلام كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تامّ كامل لا يقع ما يقاربه لو فصِّلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر القصة.

وكذلك في قصة موسى، لما قال تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٣ ـ ٦]، هذا مجملها، ثم وقع التفصيل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمرٍ إلى ما هو أولى منه، فكثير:

منها: لما أنكر على من اتخذ مع الله إلهاً آخر، وزعم أن الله تعالى اتخذ ولداً؛ قال في إبطال هذا: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، فأبان أن قولهم هذا قول بلا علم. ومن المعلوم أن القول بلا علم من الطرق الباطلة؛ ثم ذكر قبحه، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، ثم ذكر مرتبة هذا القول من البطلان، فقال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، أي: علمهم فيها علم ضعيف لا يُعتمد عليه، ثم ذكر ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾، ومن المعلوم أن الشك ليس معه من العلم شيء، ثم انتقل منه إلى قوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال نوح عليه السلام في تقرير رسالته عند من كذّبه وزعم أنه في ضلال مبين: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، فلما نفى الضلالة من كل وجه أثبت بعده الهدى الكامل من كل وجه، فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]. ثم انتقل إلى

ما هو أعلى من ذلك، وأن مادة هذا الهدى الذي جئتُ به من الوحي الذي هو أصل الهدى، ومنبعه، ومادته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]**، وكذلك هود عليه السلام.**

وقال في تقرير رسالة أكمل الرسل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢]**؛ فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إلى آخر الآيات** [النجم: ٤]**، وهو في القرآن كثير جداً؛ كانتقاله من ذكر هبته الولد لزكريا إلى مريم، وأمر القبلة بعد تعظيمه للبيت، وغيرها.**

التعليق

هذه القاعدة تضمنت أمرين:

الإجمال، ثم التفصيل. وهذا من طرق البلاغة؛ لأن الإجمال أقرب إلى الحفظ وأوعى للذهن. ثم إن الإجمال إذا وقع بقيت النفس متشوفةً إلى التفصيل، فيرد عليها التفصيل وهي أحوج ما تكون إلى معرفته. وإذا ورد العلم على القلب، وهو محتاج إلى معرفته، مشتاقٌ إليه؛ رسخ فيه أكثر، وثبت فيه وتمكّن. هذا من فوائد التفصيل بعد الإجمال، وإلا فلو قال قائل: لماذا لا يذكر الشيء مفصلاً من أول الأمر؟ نقول: لو فعلنا ذلك لفاتنا هذان الأمران، وهما: أن التفصيل بعد الإجمال أثبت في القلب؛ لأنه يرد على القلب وهو متشوف له، ولأن الاختصار والإجمال أوعى للذهن، وأقرب للحفظ.

وأما الانتقال من حالٍ إلى أخرى، فهذا أيضاً ظاهر؛ لئلا ترد

المعاني على القلوب دفعةً واحدة، وإنما ترد عليها متنقلة مرحلةً مرحلة. ومن هذا أيضاً الأحكام؛ لأن الأشياء التي لا يستطيع الناس أن يأتوها دفعةً واحدة، يجعلها الله سبحانه وتعالى مرتبة شيئاً فشيئاً.

فمن المأمورات: الصلاة، والصيام، والزكاة، كلها لها مراتب؛ ففي الصلاة: كان في الأول يصلّونها بكرةً وعشياً، ثم صارت خمس صلوات، وفي الزكاة: كانوا يؤمرون بأن يؤتوا المال حقه ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] بدون تقدير، ثم قدرت. وفي الصيام: كان بالأول من شاء صام، ومن شاء افتدى، ثم تعين الصيام.

وفي المنهيات نجد أن الله جلّ وعلا في الأمور التي يصعب الامتناع عنها مرةً واحدة يجعلها مرتبة، مثل الخمر والميسر، فإن الناس كانوا قد عاشوا عليهما، فيصعب أو يشقّ عليهم أن يدعوها مرةً واحدة، فجعل الأمر مرتباً ينتقلون من حال إلى حال؛ ليسهل عليهم التنفيذ والفعل، أو الترك.

القاعدة الحادية والستون:

معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص.

وذلك أن الله رتب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبط تلك المدة وإحصائها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات، والصيام، والزكاة، وخصَّ الحج بالذِّكر لكثرة ما يترتّب عليه من الأوقات الخاصة والعامة، وكذلك مواقيت للعِدد، والديون، والإجارات وغيرها. وقال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]؛ وذلك لمعرفة قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب، وإحصاء المدة، مصلحة في الدين، أو في الدنيا؛ كان مما حث وأرشد إليه القرآن. ويقارب هذا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ إلى آخر الآيات [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، ونحوها من الآيات.

التعليق

في ضبط الأمور والأوقات مصلحة عظيمة أيضاً، سوى ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ، وهي أن الإنسان لا ينفرط عليه وقته؛ لأن الإنسان إذا أطلق نفسه وأهملها انفرط عليه الوقت. لكن إذا رتب وقته، حفظ وقته وضبطه، ولم يضع عليه منه شيء؛ فمثلاً لو قال: إذا صليت الفجر رتبت نفسي، ففعلت كذا وكذا، وبعد طلوع الشمس أفعل كذا وكذا، وفي اليوم الفلاني: أفعل كذا وكذا؛ ولهذا قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**أحب العمل إلى الله أدومه، وإنْ قلّ**»[1]، حتى لا يصير الإنسان منفرطاً في شغله، فيضيع عليه الوقت. وقد بيّن الله تعالى في القرآن إضاعة الوقت من حال مَن أغفل الله ذكره عن قلبه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فالذي ينبغي لك أيها الإنسان أن تضبط وقتك. وكل وقت له عمل معين، حتى لا تتداخل الأعمال، ولا يضيع عليك الوقت بلا فائدة. وذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أمثلةً من هذا تدلّ على ضبط الوقت وعلى حفظه وحمايته.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٨).

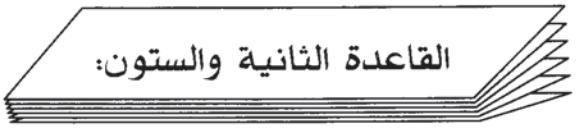

الصبر أكبر عون على كل الأمور، والإحاطة بالشيء علماً وخبراً هو الذي يعين على الصبر.

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دلّ القرآن عليها صريحاً وظاهراً في أماكن كثيرة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم؛ بالصبر، فإن الصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات، وأداء حقوق الله، وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلباً لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات، ولكن هذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها ولا يمكن وجوده بدونها هو معرفة الشيء المصبور عليه، وما فيه من الفضائل، وما يترتب عليه من الثمرات؛ فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب، وزيادة الإيمان، واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل، وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور، هان عليه الصبر على جميع ذلك.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل العمل والفضائل كلها؛ ولهذا كثيراً يذكر في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذلك لقصور علمهم وعدم إحاطتهم التامّة بها، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، **ليس معناه أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، إنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات، وأنواع المضرّات، وزوال المنافع.**

وقال تعالى مبيناً أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى، وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علّمه الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٦٨]؛ **فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر، ولو تجلّد ما تجلد، فلا بد وأن يُعال صبره.**

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن، وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، **فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه كما هو لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته. وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه، وخبروا صدقه:** ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، **وقال تعالى:** ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. **والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وما فيها من الفضائل أو الرذائل، والله أعلم.**

التعليق

هذه القاعدة تشتمل على أمرين:

الأمر الأول: أن الصبر أكبر عون على الأمور، فإن الإنسان إذا صبر على الشيء كان ذلك عوناً له على إدراكه. ويذكر أن الكسائي، وهو إمام الكوفيين في النحو، صار يتعلم النحو، فعجز عنه. وفي يوم من الأيام رأى نملة تحمل قطعة من تمرة لتصعد بها الجدار، فكلما صعدت بهذه التمرة ثقلت عليها، ثم سقطت وإياها إلى الأرض! وهكذا عدة مرات، حتى صعدت بها، فقال: هذه النملة صابرت هذا الصبر، حتى حصل لها مقصودها، في غذاءٍ جسمي، فلماذا لا أصبر حتى أنال مقصودي في تعلم النحو؛ فصار يتعلم، حتى صار إماماً في النحو.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يصبر على طلب العلم، وأن لا ييأس ويقول: هذا صعب عليّ! قد يصعب عليك لأول مرة ثم يسهل عليك، وتصير تقرأ الشيء وكأنه مشروحٌ لك من قبل، والصبر يحتاج إلى ما يعينك عليه، وهو معرفة ما للمصبور عليه، أو للمصبور عنه من النتائج، فإن كان شيئاً مطلوباً حصوله، فاعلم ما يترتب عليه من الثمرات والمنافع، والمصالح، وإن كان مطلوباً تركه. فاعلم ما يترتب على فعله من الشرور والسيئات، فهذا يعينك على الصبر.

والأمر الثاني: مما يعينك على الصبر في إدراك المطلوبات أن تقول لنفسك: أنت الآن قطعت شوطاً بعيداً للوصول إلى الغاية، ورجوعك من أثناء الطريق معناه إضاعة الوقت، وخسارة ما اكتسبت. بعض الناس مثلاً يحفظ ألفية ابن مالك، فإذا انتصف بها،

قال: هذه صعبة! وبقي عليّ نصفها، ثم تركها. فماذا حصل؟ ضيّع على نفسه الفرصة، وهذا لا شك أنه سفه.

فمما يُعين على الصبر معرفة المصبور عليه، وما يترتب عليه من النتائج والعواقب. والثاني: أنه إذا تخلى عن الصبر أضاع على نفسه شيئاً كثيراً اكتسبه.

أما الأمر الثالث: مما يعين على الصبر أن يرجو الإنسان بصبره ثواب الله عز وجل، فإن الله يقول: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فإذا عرف ما في الصبر، بغضّ النظر عن المصبور عليه، من الثواب والكرامة، فإنه يستمر على صبره ويتحمل.

والأمر الرابع: مما يعين على الصبر، أن الإنسان إذا صبر على الشيء، صار هذا الشيء كأنه غريزة في نفسه، حتى إنه ليتخلى إذا فقده. وانظر نفسك أيها الطالب، في أول السنة الدراسية، أول يوم، يومين، ثلاثة، تجد نفسك متعباً، مالّاً من طول الدروس، فإذا تمرنت عليها، سَهُل عليك وهان، حتى إنك تفقد الدروس عند حلول الإجازة، وهذا شيء مشاهد، ومثل هذه الأمور تُعين الإنسان على الصبر والتحمل، وعدم النكوص على العقبين، وأن يستمر على ما هو عليه. وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «من بورك له في شيءٍ، فليلزمه» هذه كلمة عظيمة! فلا تكن في كل يوم لك رأي ونظر، فإن هذا يذهب عليك الوقت.

القاعدة الثالثة والستون:

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان: إيمانه وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة، أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا، أو بالرياسات، كل ذلك من طرق المنحرفين.

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذه القاعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: ٣٧]، **وقال تعالى:** ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، **وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة آيات.**

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين: فقال عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. **ثم ذكر البرهان الذي مَن أتى به، فهو المستحق للجنة، فقال:** ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. **وقال تعالى:** ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ **الآيات** [النساء: ١٢٣]، **وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، **ونحوها من الآيات التي يستدل بها**

الكفار على حسن حالهم بتفوّقهم في الأمور الدنيوية والرياسات، ويذمّون المؤمنين، ويستدلون على بطلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور!! وهذا من أكبر مواضع الفتن.

التعليق

هنا ثلاثة أمور:

الأول: إيمان الإنسان وعمله الصالح، وهذا هو المقياس للرجل، وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخلقه، فأنكحوه**»[1]، هذا هو المقياس الأول إذا كان مؤمناً عاملاً بالصالحات. هذا هو الدليل على كمال حاله، وحسن حاله.

الثاني: دعاوى مجردة يدّعيها الإنسان لنفسه، وهي بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه لا تدل على كمال حاله، وحسن حاله؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يدّعي الكمال. ولكن إذا نظرنا إلى حاله، إذا هو مفارق للكمال! لا نقبل منه. ومن هذا دعاوى أولياء الشياطين أنهم أولياء الله، وأحبّاء الله، مثل ما يدّعي أولئك المخرفون، الذين يدّعون الولاية لأنفسهم، أنهم أولياء لله؛ ليجذبوا الناس إليهم.

الثالث: إعطاء الله الإنسان المال، والرئاسة، والجاه، والسمعة، هل تدل هذه على كماله؟ لا يلزم؛ قد يكون الأمر بالعكس! قد يُعطى الإنسان هذه الأمور ابتلاءً من الله عز وجل،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم مَن ترضون دينه فزوّجوه (١٠٨٤).

وامتحاناً له، فيتولى على الناس، ويكون له جاه عندهم ورئاسة، وما أشبه ذلك، وهذا لا يدل على حسن حاله حقيقةً.

فهذه أمور ثلاثة. وميزان هذه الأمور هو: الإيمان والعمل الصالح؛ فكمال الإنسان هو بالإيمان والعمل الصالح فقط. أما الرئاسات وما يتعلق بها من الدعاوى الباطلة، فهذه لا تدل على حسن حاله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، لا نقبل منهم هذه الدعوى. ولهذا ردّها الله عليهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]. أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] لا يقولون: لا نؤمن، ولكن يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فيقدحون في المؤمنين، فقال الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. وعلى هذا، فيجب أن ننظر إلى حال الإنسان، لا إلى دعواه الباطلة، ولا إلى ما أُوتي من مال، وولد، ورئاسة، وجاه، وما أشبه ذلك.

القاعدة الرابعة والستون:

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَرِدُ على الحق والأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول.

وهذه قاعدة شريفة جليلة، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن؛ فمن لم يُحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة الله تعالى في ورودها على الحق الصريح لأسباب مزعجة تدفعها، أو لشُبه قوية تُحدثها، ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، فزهق الباطل، وثبت الحق؛ حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حِكَماً بالغة، وأيادي سابغة، ولنمثّل لهذا أمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيماناً، ويقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسل أنهم قد بلغوا ذروته العليا، وأنهم معصومون من ضدّه، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض من الأمور المزعجة المنافية حساً لما عُلم يقيناً ما يوجب لهؤلاء الكُمَّل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات، وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال،

ويصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير لا يحصل بدون هذه الحالة؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، فهذا الوارد الذي لا قرار له ـ ولما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى ـ لا ينكر ويُطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

التعليق

هذه الآية أشكلت على العلماء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وفيها قراءة سبعية: (وظنوا أنهم قد كُذِّبوا)؛ فعلى قراءة التشديد؛ الأمر فيها واضح، يعني: تيقّنوا أنهم قد كذِّبوا، فأيسوا من التصديق، ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]. لكن الإشكال في قراءة: (كُذِبوا) ظاهر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ؛ أنه ورد على قلوبهم أن وعدهم بالنصر ليس صحيحاً! ولكن يقول الشيخ: إن هذا وارد يضمحل ويتلاشى، وإنما لقوة الواردات على القلوب، ينسون صدق الوعد، فيظنون هذا الظن، هذا ما ذهب إليه شيخنا ـ رحمه الله ـ؛ إذ قال: كُذِبوا، أي: قد كُذبوا بوعد النصر، ومعنى ﴿كُذِبُواْ﴾: أخبروا بالكذب؛ كما جاء في الحديث: «**صدقك وهو كذوب**»[(١)]، وهذه لو بقيت لكانت مطعناً في الرسل أن يظنوا أن الله وعدهم فكذبهم. ولكن شيخنا يقول: إن هذا وارد يَرِد على القلوب، ويتلاشى بسرعة. وسبب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل (٢١٨٧).

وروده على القلب قوة الواردات التي توجب مثل هذا الظن، ويقول شيخنا ـ رحمه الله ـ: إن هذا أحسن من تأويل الآيات بوجوه بعيدة.

وعندي أن الأمر ليس كما قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا، وأن معنى ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾، أي: كذبهم أقوامهم في قولهم إننا مؤمنون؛ لأنهم لو صدقوا في قولهم إنهم مؤمنون لجاءهم النصر؛ فيظن هؤلاء الرسل أنهم قد كذبوا، ليس بخبر الله، يعني: أن الله كذبهم حين أخبرهم بالنصر، ولكن قد كذبوا، أي: كذبهم أقوامهم بقولهم: إننا مؤمنون، وأنه تخلف النصر لعدم إيمان قومهم. وحينئذ ليس في الآية مشكل، تبقى الآية على ظاهرها بدون إشكال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، يعني: استبعدوا نصر الله، وظنّوا أنهم قد كذبوا من أقوامهم الذين قالوا: إنا مؤمنون، وإنا معكم؛ جاءهم نصرنا. وهذا المعنى الذي قلت: لا شك أنه أحسن مما ذهب إليه شيخنا ـ رحمه الله ـ. والواردات بلا شك تَرِد على الإنسان، ويغفل وينسى الحقيقة التي هي الواقع؛ ولهذا لما كسفت الشمس خرج النبيّ ﷺ فزعاً يظن أنها الساعة[1]، كما جاء في الحديث، وكيف يظن أنها الساعة، والساعة لها أشراط، ولها علامات لم تأت؟ لكن لقوة الوارد الذي ورد على قلبه نسي أن يكون للساعة أشراط تتقدّمها.

❑ ❑ ❑

ومن هذا الباب؛ بل من صريحه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، **أي: يلقى من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحِكَم العظيمة المترتبة على**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف (١٠١٠)؛ ومسلم في كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف (٩١٢).

هذا الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطل ما يُلقي الشيطان، ويُحكم آياته، والله عليم حكيم. فقد أخبر بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء لهذه الحِكَم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك معصومون، وظنّ أن هذا ينافي العصمة فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل قولاً خالف فيه الواقع، وخالف نص الآيات الكريمات.

التعليق

ومن هذا على أحد قولي المفسرين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤]، هذه الآية تنازع الناس فيها قديماً وحديثاً تنازعاً كبيراً؛ فمنهم من قال: إن الرسول ﷺ لما قرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] قال حين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى! فسمع المشركون هذا الكلام من الرسول ﷺ، وسجدوا مع النبيّ ﷺ في آخر السورة. فقد سجد مع النبيّ ﷺ المؤمنون والمشركون والجنّ والإنس[1].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الجمعة عن رسول الله، باب ما جاء في السجدة في النجم، رقم (٥٢٤).

ومنهم مَن أنكر هذا، وقال: لا يمكن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يثني على هذه الأصنام، ويقول: تلك الغرانيق العلى! وأنكروا إنكاراً عظيماً للآثار الواردة في هذا المعنى.

ولكن عند التأمل يمكن أن نقول: إن هذا الذي سُمع من الرسول عليه الصلاة والسلام، ليس هو قول الرسول، وإنما هو قول الشيطان؛ ألقاه فسمعه الناس، فظنّوا أنه قول الرسول، فقالوا: هكذا أثنى على أصنامنا، وعلى آلهتنا! وهو ـ في الواقع ـ ليس كلام الرسول؛ ولهذا قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، فلعل هذا من فعل الشيطان. وحينئذ، فلا حاجة إلى أن نبطل هذه الآثار الواردة.

ومنهم من قال: إن التمني في قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ هو أمنية القلب، وليس القراءة؛ يعني: أن الرسول، أو النبيّ يتمنى، ولكن الشيطان يفسد عليه أمنيته، ويحول بينه وبينها، وهذا ضعيف.

ومنهم من قال: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، أي: قرأ؛ ألقى الشيطان في أمنيته، باعتبار مَن سمعوا هذه القراءة، فيلقي في قلوب أناس شكاً وشبهة، ويلقي في قلوب الآخرين يقيناً وثباتاً، ﴿... فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، فيكون هذا الإلقاء ما يلقيه الشيطان في قلب السامع من شبهات حول القرآن، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته. لكن سياق الآيات يدل على أن الذي يلقيه الشيطان في أمنيته قولٌ يسمع، فيُظنّ أنه القرآن. ثم بعد ذلك ينسخ الله هذا القول، ويبين بطلانه، ويحكم الله آياته. والنسخ معناه

هنا: أن ينسيهم إياه حتى لا يكون له أثر، ويكون هذا القول فتنة للذين في قلوبهم مرض، وأما الذين أوتوا العلم، فإنهم يعلمون أنه ليس بشيء، وليس صواباً.

وقد رويت قصة الغرانيق بطرق ضعيفة، وبعضهم ينكرها إنكاراً عظيماً، حتى عنون بعضهم في الكتب التي ألفها «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق». ونحن نقول: وليكن هذا ضعيفاً، لكن الشيطان يلقي في القراءة، سواء الغرانيق أو غيرها. والذين ضعفوه ظنوا أن هذا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ليس من قول الرسول، بل يلقيه الشيطان بصوت الشيطان، مقلداً لصوت النبيّ ﷺ.

وعلى كل حال، هي لا تضر، سواء صحت أو لم تصح، ما دام أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته؛ فليس فيه إشكال. ثم إن الآية صريحة أن الشيطان هو الذي يلقيها، وليس الرسول يتلوها؛ ما قال: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى قال في أمنيته كذا وكذا، بل قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

❑ ❑ ❑

ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]**، وأنه ظنٌّ عرض في الحال ثم زال؛ نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين تَرِدُ قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها؛ ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم مبشراً لهم: «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»**(١)**، ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٥)، وأبو داود في الأدب، باب في رد الوسوسة، حديث رقم (٥٠٩٠) (١٤/ ١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الإيمان لقوة وارد من شهوة، أو غضب، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يَرِدُ في قلبه هَمٌّ وإرادة لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب، ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله، وخوفه، ورجائه؛ دفع عنه هذا الهمّ، واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يُرضي ربه؛ ولهذا بعد المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخوّاص من الخلق، قال ﷺ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ الآية [يوسف ٣٣]. وكان أحد السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله[1]...

التعليق

هذا الذي ذهب إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ هو الصواب في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]؛ لأنها امرأة مدلّلة، امرأة الملك، عليها من الحلي، والثياب، والجمال، والبهاء، ما يوجب تعلق النفس بها؛ فدعته في موضع لا يطلع عليهما إلا الله؛ لأنها أغلقت الأبواب، ولم يبق معه إلا هذه المرأة؛ دعته إلى نفسها وهو شاب فيه ما في الرجال، فـ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أيضاً، لكن منعه أنه رأى برهان ربه؛ رجع إلى نفسه ورأى ما معه من اليقين، ونور الإيمان، فامتنع.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، حديث رقم (٦٦٠) (٢/ ١٤٣). ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١) (٢/ ١٨٥).

وهذا لا يضرّ يوسف عليه السلام، بل لا يزيده إلا رتبة وفضلاً؛ لأنه إذا كان في هذه الحال التي وجد السبب فيها وانتفى المانع، ثم بعد ذلك تركه لله؛ صار أعظم منزلة وأعلى درجة ممن لم يكن له همّ بها، فهو إذا لم يهم بها لم يكترث، لكن إذا همَّ بها، ثم بعد ذلك رجع وتركها لله عز وجل؛ صار هذا أعظم، فهذا مدح وثناء ليوسف.

وأما من قال: لأن معنى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بضربها، فهذا من أفسد الأقوال؛ لأنه إذا كان ضربها حقاً، فإن برهان ربّه لا يصرفه عنه، وإن كان باطلاً، فمعنى ذلك أنها فعلت ما لا تستحق الضرب عليه، فهذا التفسير، لا شك أنه باطل، وأن المعنى ما ذهب إليه شيخنا وكذا شيخ الإسلام رحمهما الله، أن الهمَّ حقيقي.

وهذا البرهان الذي رآه، قال بعضهم: إنه رأى أباه يعقوب يعضّ يديه وأنامله، يقول له: لا تفعل! وهذا أيضاً باطل؛ لأن الأب لا يسمى برهاناً، ولكن البرهان ما معه من الإيمان والعلم بالله سبحانه وتعالى والخوف منه، وهذا هو الذي منعه.

والحاصل: أن مثل هذه العوارض ـ كما قال شيخنا رحمه الله ـ لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة؛ لأنها عوارض تأتي وتزول. قد يعرض على القلب، ولا سيما قلوب المؤمنين، شيء من الشك والجحود والكفر، ولكن كل هذا يزول مع الإيمان. حتى إنه يصور للرجل إذا قام يصلي كأنما يصلي لأبيه، أو لأخيه، أو لمعلمه، أو ما أشبه ذلك، ولكن هذا كله يزول بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والانتهاء عنه.

❑ ❑ ❑

... وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، **يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان، والذي يعرض في إرادته، فإذا مسَّهم تذكروا ما يجب من يقين الإيمان، ومن واجباته؛ فأبصروا، فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير. ولعل من هذا قول لوط عليه السلام: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** [هود: ٨٠]، **وقول النبيّ ﷺ: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»**(١)**، يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط ﷺ تلك الحال الحرجة، والنظر للأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.**

التعليق

لوط عليه السلام قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، يعني: إلى قوم يمنعوني، ويعصمونني، ويعينوني. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»**(١)، وهو الله عز وجل، لكنه في تلك الحال الحرجة ـ كما قال شيخنا رحمه الله ـ غاب عنه ما سوى الأسباب الحسية، وهو القرابة، والقوم الذين يحمونه ويمنعونه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ (٣١٩٢)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب (١٥١).

القاعدة الخامسة والستون:

قد أرشد القرآن إلى منع الأمر المباح إذا كان يفضي إلى محرَّم أو ترك واجب.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد».

التعليق

إذا كان المباح يفضي إلى المحرم كان حراماً، وإذا كان يفضي إلى واجب كان واجباً؛ فتجري فيه الأحكام الخمسة. ويقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: وهذه القاعدة من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد»، يعني: ما كان وسيلة للشيء فله حكم ذلك الشيء، فالوسيلة للواجب واجبة، ومثاله: الوضوء للصلاة واجب، فإذا لم يمكن الوضوء إلا بشراء الماء، كان شراء الماء واجباً. وما كان وسيلةً للمحرم، كان حراماً؛ مثاله: لو أن شخصاً جاء يشتري وعاءً للخمر، قلنا: البيع عليه حرام. والقاعدة الثانية: «ما لم يتم الواجب إلا به، فهو واجب». لكن قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد» أعمّ. وعلى هذا تكون هي القاعدة المعتبرة.

❑ ❑ ❑

فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ

لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، **وقوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. **وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير؛ فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، إن توسّل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها، وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب كانت محرمة منهياً عنها، وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.**

التعليق

الأمثلة واضحة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، الأصل في سبّ آلهة المشركين الإباحة، بل قد يجب، فإذا كان يؤدي إلى سبِّ الله عز وجل، وهو منزَّه عن ذلك جل وعلا ـ بخلاف آلهتهم ـ كان محرماً.

والضرب بالرِّجل، الأصل فيه الإباحة، فإذا كانت المرأة تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها؛ صار حراماً. فلا يجوز للمرأة أن تبدي شيئاً من حليها؛ لأنه قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، مع أنها تُعلم ولا تُرى. فكيف إذا لبست المرأة حلياً جذاباً، في ذراعيها، أو في ساقيها، وأخرجت ذلك للناس! فإنه يكون أشدّ تحريماً.

ثالثاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، والأصل في البيع والشراء أنه حلال مباح، فإذا كان يؤدي إلى ترك واجب، وهو صلاة الجمعة؛ كان